ورقة بحثيَّة بعنوان:

الأَدَبُ العَرَبِي النَّيْجِيرِي: نَشْأَتُهُ وَمَضَامِينُهُ وَاتِّجَاهَاتُهُ

إعداد:

إبراهيم خليل يوسف
عضوٌ في هيئة التدريس بقسم اللغة العربيَّة، جامعة أحمد بِلُّو، زاريا – نيجيريا

Ibrahim Khalil Yusuf
ikyusuf@abu.edu.ng
+2348024664734, +2348035889820

للمشاركة والتقديم في:

المؤتمر الدولي الثالث للغة العربيَّة
المنظَّم من قِبل المجلس الدولي للغة العربيَّة

المكان:

دُبَيْ، الإمارات العربيَّة المتَّحِدة

التاريخ:

من 7 إلى 10 مايو، 2014م.

المقدِّمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين، سيِّدنا ومولانا أبي القاسم محمد المصطفى المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغرِّ الميامين. وبعد.

يُعَدُّ الإنتاج الأدبي العربي لدى أهالي البلاد غير العربية مثل نيجيريا، وخاصة الفنِّي منه، من أهمِّ ما ترتكز عليه البرهنة ويتمركز عليه الاستدلال، لا على مجرَّد وجود الثقافة العربية وتأثيرها في مثل هذه البلاد فحسب، بل على تجذُّرها وترسُّخها فيها على حدّ سواء.

وتُعتَبر نيجيريا من أقطار غرب أفريقيا الأكثر تأثُّرًا بالثقافة العربيَّة والإسلاميَّة؛ وذلك للعلاقات التي كانت منذ مئات السنين، ولا تزال قائمةً، بينها وبين البلاد العربيَّة والإسلاميَّة. وقد أسفرت هذه العلاقات، عبر تاريخها الطويل ومراحلِها المختلفة عن ازدهار الثقافة العربيَّة في هذا البلد بشكل عام، وتطوُّرِ الأدب العربي النيجيري بشكل خاص.

فعليه، يسعى هذا المقال ليعرِّف بهذا الأدب من خلال تسليط الضوء على أهمِّ القضايا المتعلِّقة بنشأته وتطوُّره ومضامينه واتجاهاته. ليؤكِّد على أن هذا الأدب النيجيري بما طغى عليه من الحس الإسلامي العميق، الذي تتمثَّل فيه أسمى القِيَم وأرقى المبادئ التي عرفها تاريخ البشر، قادرٌ على أن يؤدِّيَ ذلك الدور المنشود في بناء شخصيَّة الفرد والمجتمع. ويكون ذلك خلال ما يلي:

أوَّلاً – مفهوم الأدب العربي النيجيري:

إنَّ مادَّة الأدب من المفردات اللغوية العربيَّة التي حظيت بتعريفات عديدة عبر الزمن حسب تطوُّراتها الدلالية التاريخية الثقافيَّة.

والأدب، كما في بعض الموارد، هو: "تعبير راق عن المشاعر والأفكار والآراء والخبرة الإنسانيَّة".[1]

فبما أنَّ الأدب، بمفهومه الأعم الذي يَشمَل العلميَّ منه والآخر الفنِّي، هو كلُّ ما أنتجه العقلُ الإنساني من ضروب العلوم والمعارف،[2] فهو بذلك نتاجٌ ثقافيٌّ يَعتمد أساسًا على الواقع الثقافي الذي يعيشه. هذا، وإن كان الواقع الثقافي نفسه مرهونًا على عوامل أخرى، كالاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة وغيرها، التي تجتمع مع بعضها البعض وتتفاعل فيما بينها لا لتحكم حياة الإنسان فحسب، بل لتجسِّدها تجسيدًا متكاملاً في صُوَره المختلفة.

وعليه، فلا يمكن أن يكون مفهوم الأدب بمعناه الأخص منحصِراً على الإنتاج اللغوي فقط. ولعلَّ هذا السبب هو ما دعى مجموعة من العلماء في المجال، على رأسهم الدكتور/ عبد الجليل عبد المهدي، إلى التعريب عنه بأنَّه "تعبير جميل يُعبِّر عن مشاعر الإنسان وأحاسيسه وانفعالاته بصور موحيَة قادرة على نقل تجربة الأديب إلى المتلقي أو السامع أو القارئ".[3]

وبهذا المفهوم يَظلُّ الأدب عنصرًا هامًّا بين مكوِّنات الهُوِيَّة الذاتيَّة لبناء شخصيَّة الفرد والمجتمع، بناءً يتناسب ومتطلَّبات الرسالة التي يحملها الإنسانُ وواقع تحدِّيات حاضره ومستقبله، ما يوجِب بطبيعته الاهتمامَ به في قوالب مختلفة.

ومن حيث إنَّ الوصف يقوم بشيء من لوازم الموصوف، فإنَّ المقصود بالأدب العربي النيجيري في هذا الصدد هو: ذلك الإنتاج الفني الصادر من أهالي تلك البلاد النيجيرية في اللغة العربية الذي ارتقى في شكله ومضمونه ليُسهم بدوره في تكوين ما يُعرَف بالأدب العربي على الإطلاق.

ثانياً – نشأة الأدب العربي النيجيري وتطوُّره:
لَمَّا كان الأدب العربي، باعتباره فنًّا من فنون اللغة العربيَّة، يمثِّل انعكاسًا للحياة بجميع أبعادها، سيما الثقافيَّة منها والفكريَّة، في المجتمعات العربيَّة وغيرها من المجتمعات الإسلاميَّة، فإن العناية به تعني، بطبيعة الحال، المحافظةَ على هُوِيَّة هذه المجتمعات.

وعليه، فقد عكف مسلمو نيجيريا على دراسة الفنون العربيَّة وتعليمها، لغةً وأدبًا، منذ طلوع شمس الإسلام على بلدهم، وكانوا لا يفرِّقون بين هذه الفنون، بحيث لا يُفضِّلون فنًّا منها دون آخر، إذ أنَّ الفنون كلَّها، بالنسبة لهم، تهدف إلى غاية واحدة وهي التفقُّه في الدين؛ فلم تكن دراسة اللغة العربيَّة عندهم غايةً في ذاتها، وإنما هي وسيلة لفهم الدين والتفقُّه فيه.[4]

درسَ أولئك المسلمون ما وصلهم من النصوص الأدبية العربيَّة دراسة وافية ضِمْنَ دراساتهم للكتب والنصوص الإسلاميَّة، ولم تكن دراستهم هذه بوصفها دراسة مستقلة بنفسها، بل لكونها جزءً من الثقافة الإسلاميَّة التي يهدفون إلى تحصيلها. كما لم تكن لغتهم الأم عربيَّة، ولكنَّ تمسُّكهم بالدين الإسلامي، الذي اعتمده اللسان العربي وعاءَ علومه، كان دافعًا أساسيًّا دفعهم إلى تعلُّمها وإتقانها حتَّى ألَّفوا بها كتبًا كثيرة في شتَّى الفنون.[5]

وكان ما وصل إلى هذا البلد من النصوص الأدبيَّة العربيَّة، بعد دخول الإسلام في ركب مع الوافدِين إليها من التجار والعلماء الدعاة، لا يتجاوز قصائد من الشعر الجاهلي، ومقامات الحريري، وبعضًا من أشعار صدر الإسلام، كقصائد حسان بن ثابت ♦، وقصيدةِ كعب بن زهير ♦ المشهورة بـ(بانت سُعاد)، والبردةَ وقصائد أخرى في المديح للبوصيري، والعشرينيات في مدح الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلَّم) لأبي زيد عبد الرحمن الفازازي (تـ: 627هـ).

وقد وصل إليه أيضًا كثيرٌ من المنظومات العلميَّة، كألفيَّة ابن مالك في النحو، وألفيَّة العراقي في مصطلح الحديث، وأمثالهما، كما وصل إليه كثيرٌ من التفاسير وكتب الحديث والفقه والتوحيد والتاريخ والنحو والبلاغة والعروض؛ فكانوا يلتقطون بعض العبارات والأبيات الشعريَّة الجميلة من الشواهد المبثوثة في هذه المتون أثناء قراءتهم لها ودراستهم إياها.[6]

فوُجِدَ من بينهم نفرٌ من العلماء مالوا بطبيعتهم إلى الأدب، واعتمدوا في تكوين ملكاتهم الفنيَّة على القليل الذي وصلهم من تلك النصوص الأدبيَّة العربيَّة، بالإضافة إلى الشواهد الملتقَطة من تلك الكتب العلميَّة، وجعلوا يتذوَّقونها ويستلذُّونها، ويعجبون بأساليبها غاية الإعجاب، ويستحسنونها لما فيها من الحِكم والأمثال والمعاني البلاغيَّة والمحسِّنات البديعيَّة، فضلاً عن ذخيرتها اللغويَّة؛

فيحفظونها حفظًا جيِّدًا ويحاولون محاكاتها، أو معارضتها أو تخميسها أو تشطيرها إن كانت شعراً.

وقد ساعدهم على هذه العمليَّة ذلك الميل الطبيعي إلى الفنِّ ومحاولة الإبداع، بالإضافة إلى حرصهم الشديد في إتقان هذا اللسان العربي المبين الذي نال منزلةَ الشرف والقداسة عندهم لشرف الدين الإسلامي الحنيف ولكونه وعاءً لكتاب الله ✞، فضلاً عن رغبتهم في إبراز براعتهم اللغويَّة؛ فخلَّفوا من بين نتاجهم الفكري نصوصاً أدبيَّة كثيرة.[7]

عوامل نشأة الأدب العربي النيجيري:
إنَّ الكلام لتحديد العوامل أو البحث لمعرفة المؤثرات في نشأة أيّ فنٍّ من الفنون يُعدُّ من الأجزاء الأساسيَّة التي قلَّ استغناء البحث عنها، بحيث لا يكاد يتمُّ تصوُّر موضوع بحث من البحوث وفهم الخصائص المميِّزة لـه إلاّ بالنظر إلى العوامل المساعِدة على نشأته، وأنَّ العوامل المؤثِّرة في نشأة الأدب بوجه عام كثيرةٌ ومتعددة الجوانب أيضاً؛ قد تكون ثقافيَّةً أو دينيَّةً أو سياسيَّةً أو اقتصاديَّةً حينًا، كما يمكن أن يجتمع أكثر من عامل حينًا آخر، وذلك حسب رقيِّ الأمة أو انحطاطها.

وبالنسبة للأدب العربي النيجيري فلنشأته عوامل كثيرة، بعضها عام والآخر خاص. أمَّا العام فهو ما يتمثَّل في عدة روافد أثَّرت في حياة الثقافة العربيَّة في هذا البلد بوجه عام. وأمَّا الخاص فهو مجموعة من مؤثِّرات تُعتبَر عوامل مساعدة لنشأة الأدب العربي في هذا البلد بشكل مباشر. وفيما يلي ذكرُها مع بيان طبيعة تأثيرها على نشأة هذا الأدب في نيجيريا:

أ – **الحلقات ومدارس التعليم الإسلامي التقليديَّة:** كانت هذه الحلقات ومدارس التعليم الإسلامي معروفة في مجتمعات نيجيريا منذ زمن قديم، قِدم دخول الإسلام فيها، على غرار ما كان سائدًا في مصر وبلاد المغرب وغيرها من المجتمعات المجاوِرة لهذا البلد، وذلك لما بين هذا البلد وتلك البلاد من العلاقات التاريخية والوشائج الدينيَّة. وكان من بين الكتب المتداولة في مدارس هذا البلد بعض من دواوين الشعر العربي وكتبٌ أخرى تتضمَّن بين طياتها شيئًا من النصوص الأدبية النثريَّة منها والشعريَّة، يتناولها الطلاب بالدراسة لتكوين مقدِرتهم اللغويَّة، وذلك لكون هذه اللغة وسيلةً إلى فهم المعارف الإسلاميَّة والتفقُّه فيها.

وقد استمرت هذه الحلقات على هذا النمط من الدراسة حتى هذا اليوم رغم انتشار التعليم العربي في المدارس النظاميَّة الحديثة، والأمر بالنسبة للوقت المتأخر واضح جدًا، حيث يُدرَس فيها أغلب كتب الأدب واللغة بدءًا بالشعر الجاهلي، وفي مقدمته شعر المعلقات، وشعر صدر الإسلام، من أمثال قصائد حسان بن ثابت ♦ وكعب بن زهير ♦، ومقامات الحريري، وكذلك الشعر الصوفي، وخاصة مؤلفاته المشهود لها بالبلاغة، من أمثال قصائد البوصيري (تـ: 696هـ) في المديح النبوي. وقد ذكر النقاد بانّ شعر البوصيري هذا يمتاز "بالرصانة والجزالة وحسن استعمال البديع في المدائح النبوية" وعلى سبيل المثال: بردته المشهورة التي لا تخلو منها حلقة من حلقات التعليم الإسلامي في هذا البلد.[8]

ومن الملاحظ أن أثر هذه البردة في الوجدان الديني والأدبي واضح في أوساط المجتمعات الإسلاميَّة المثيلة لنيجيريا منذ قرون، فقد ذكر النقاد عن هذا الأثر القوي، بأن "البوصيري بهذه البردة هو الأستاذ الأعظم لجماهير المسلمين، ولقصيدته أثرٌ في تعليمهم الأدب والتاريخ والأخلاق، فمن البردة تلقَّى الناس طوائف من الألفاظ والتعابير غنيت بها لغة التخاطب، وعن البردة عرفوا أبوابًا من السيرة النبويَّة".[9]

إذن فإن دراسة الكتب الأدبيَّة والتمرُّس بأساليبها كفيلةٌ بأن تُكوِّن الملكات وتؤجّج الفكر والوجدان والخيال، وهو ما ستتمخض عنه المقدرة على الإنتاج الأدبي والجري في حلبته، كما أشار إلى ذلك بعض الدارسين في هذا المجال.[10]

وقد أشار ابن خلدون إلى مثل ذلك حيث قال: "والمقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون بذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة، من شعر عالي الطبقة، وسجع متساو في الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو".[11]

ولذلك فإن مثل هذه المدارس والحلقات تُعتبَر العامل الأساسي في تكوِين معظم أدباء نيجيريا، وخاصّة الذين تلقوا تعليمهم أو معظمه في بيئة نيجيريا، وهو ما عناه القلقشندي في سياق حديثه عن الحلقات ومكانتها العلمية والأدبية في كانم - برنو، فقال: "وربما كان فيهم من أخذ في التعليم، ونظر من الأدب نظرة النجوم، فقال إني سقيم، فما زال يداوي عليل فهمه، ويداري جامع علمه، حتى تشرق عليه أشعتها، ويطرز بديباجته أمتعتها".[12]

ب – نشاط الحركات الصوفية: إنَّ مِمَّا اعتادتْ عليه مجتمعات نيجيريا من بين نشاطاتها الصوفيَّة على مدى تاريخ وجود هذه الحركات فيها، ما يمكن التعبير عنه بحلقات الذكر ومجالس إنشاد المدائح النبويَّة الجماعيَّة، وأنَّ هذه المجالس الإنشاديَّة غالبًا ما تُعقَد في ليالي الجمعة وفي مناسبات الفرح، مثل أيَّام الاحتفال بذكرى مولد خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومناسبات الزفاف وعودة الحجيج، وغيرها.

ونظرًا إلى أنَّ الموسيقي الشعريَّة أقرب إلى الإنشاد وإلى إلهاب المشاعر من النثر فإن المادَّة الشعريَّة هي المفضَّلة في مثل هذا النشاط. وبما أنَّ شخصيَّة خاتم الأنبياء(صلى الله عليه وآله وسلم) هي المحور الأساسي والرمز الذي حام حوله معظم الشعر الصوفي، كانت القصائد والدواوين المؤلَّفة في مدحه (صلى الله عليه وآله وسلم) وذكرِ سيرته الشريفة هي المختارة في مثل هذه المجالس. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإن طبيعة الأشعار المنشودة في المدائح النبويَّة بعامة مُعِينة على تكوين الملكة الشعريَّة وتقويتها؛ فكانت القصائد المختارة لمثل هذه المجالس تُحفَظ عن ظهر القلب لكثرة ترددها في هذه المجالس. وقد تَخصَّص بعض مرتادي هذه المجالس في ذلك، فبرزت فيها أصوات جميلة تهتزُّ لها الأبدان وتَطرُب لها النفوس، فتزايدت بشكل واسع ومستمر، ما ساعد كثيرًا على إذكاء الذوق الشعري لدى بعض أهالي هذا البلد.

ج – البعثات العلمية: إنَّ للبعثات العلميَّة إلى البلاد العربيَّة أثرًا واضحًا في تكوين ملكة الأديب لدى النيجيريين، حيث أتاحت لكثير منهم فرصةَ الاتصال بالأدب العربي في بيئته الأصليَّة والنهل من منبعه الصافي، فأضافوا جميع ما اكتسبوه في البلاد العربيَّة من الأساليب والمناهج والخبرات إلى قدراتهم اللغوية وملكاتهم الأدبيَّة التي تزوَّدوا بها من تلك الحلقات والمدارس التقليديَّة في بلدهم الأصلي.

وهذه الظاهرة منتشرة في أوساط أدباء نيجيريا، وخاصة، في مرحلة ما بعد الاستعمار البريطاني،[13] فكثير من هؤلاء تلقَّوا قدرًا من التعليم العربي والإسلامي في البلاد العربيَّة، بعد التعلُّم في بلدهم الأصلي، واتَّصلوا بحركات التجديد في الأدب العربي وبأدب المحافظين، وتثقَّفوا بثقافة حديثة؛ فمن ثَمَّ تكوَّنت ملكاتهم الفنيَّة مع تَكَوُّن ملكاتهم العلميَّة والثقافيَّة.

إنَّ هذه العوامل وغيرها هي التي اجتمعت وتضافرت في تهيئة الجو المناسب لتكوين الملكة الفنيَّة لدى كثير من أدباء هذا البلد، حيث راحوا ينسجون على منوال ما يدرسونه من الأدب العربي في الحلقات التعليميَّة، ويقلِّدون ما ينشدونه في المجالس للمدائح النبويَّة، ويستوحون ما اكتسبوه من الخبرات في البلاد العربيَّة؛ وعلى مثل ذلك فُسِّرت نشأة الأدب الأندلسي الذي كانت بيئة نيجيريا العلميَّة والأدبيَّة شبيهةً ببيئته الأدبيَّة والعلميَّة نوعًا ما.[14]

تطور الأدب العربي النيجيري:

أ – الأدب العربي النيجيري قبل الاستعمار البريطاني: من الأمور الصعبة فيما يتعلق بقضايا الأدب العربي في هذا البلد الاهتداء إلى تاريخ دقيق وصحيح لنشأته، وذلك لأنَّ أكثر هذا الأدب الذي سبق القرن التاسع عشر الميلادي يحيط بتاريخه شيءٌ من الغموض والضبابيَّة، مما يعسر معه الوصولُ إلى النصوص الأدبيَّة لتلك الحقبة السحيقة؛ على أنَّ هناك بعض أقوال المؤرخين، من أمثال آدم عبد الله الإلوري، التي تشير إلى وجود شعر عربي اللسان في تلك الفترة التي مرَّ بها تاريخ هذا البلد، وأنَّ هناك شعراء نبغوا فيه وتناولوه في أغراض مختلفة، غير أنَّها في الغالب لم تُسنِد إشاراتِها بذكر نماذج من تلك الأشعار.[15]

ولعلَّ ما يمكن ترجيحه هنا هو إنَّ النصوص الأدبيَّة لتلك العهود قد انطوتْ عليها حُجبُ الزمان فأسدلت عليها أستارَ النسيان كما وارت على كثيرٍ من آثارها الترابَ، فلم يبق منها شيء يُمكن الوصول إليه أو تقديمُه كأنموذج إلاَّ الإخبار عنه.[16]

وقد أشار بعض المؤرخين لهذا البلد إلى أن تاريخ نشأة الأدب العربي، الذي يتمخَّض عنه الشعر العربي، يعود إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، فانطلقَ منذ ذلك الحين متطوِّرًا عبر التاريخ إلى أن تَمَّ ازدهارُه في القرن التاسع عشر الميلادي على يد ابن فودي وجماعتِه، "الذين بلغ بهم النضجُ الفكري والنبوغ الفني إلى إنشاء رسائلهم العاديَّة بالقصائد والأشعار، ويعتبرون من يعجز عن ذلك من الزعانف الذين يعجزون عن لحاق الرجال".[17]

ويُستخلَص من ذلك كلِّه أنَّ الأدب العربي النيجيري بعامَّةً قد تهذَّبت حواشيه في زمن لا يمكن معرفته أو على الأقل يصعب الاهتداء إليه. وعليه فإنَّ الجزم بأوليَّة هذا الأدب أو تحديد الزمن الذي هُذِّب فيه وأُطِيلت قصائدُه قد أصبح ضربًا من المستحيل.

والجدير بالذكر أنَّ أقدم النصوص الصادرة عن أولئك الأدباء والذي وقف عليه المؤرِّخون وأشاروا إليه في كتبهم لا يمتدّ تاريخُه إلى الزَّمن الذي أُرِّخ لنشأة هذا الأدب، وهو القرن الثالث عشر الميلادي؛ إذ أنَّ قديم العهد منه لا يتجاوز القرن السادس عشر الميلادي، وأنَّه قليل العدد بالنسبة لما صدر عن الأدباء الذين عاشوا في القرن التاسع عشر الميلادي، وهو القرن الذي يُعتبَر عصر نهضة الثقافة الإسلاميَّة العربيَّة بعامَّة ونهضة الأدب العربي في تاريخ هذا البلد بخاصة.

ومن نماذج تلك النصوص الشعرية القديمة، على سبيل المثال، منظومة (عطيَّة المعطي) للشيخ عبد الله الثقة الفولاني الكشناوي في الحِكم والأمثال وهي كما وصفها آدم الإلوري تقع في نحو ألف وخمسمائة بيتٍ، وتخميس قصيدة زهير المشهورة بـ(بانت سعاد) للشيخ عمر بن محمد بن أبي بكر الكُوكِي، ومنظومة (صرف العنان) لمحمد مود بن محمد وهي في مائتَين واثنا عشر بيتًا في الوعظ والإرشاد، جاء فيها ما يلي:

مَنْ أَجْهَلُ النّاسِ سِوَى الحَسُودِ يَغْضَبُ مِنْ قَضِيَّةِ الوُدُودِ
وَلِلْحَسُودِ فِتْنَةٌ شَدِيدَة وَذِلَّةٌ وَنِقْمَةٌ مَدِيدَه.[18]

ومن ذلك بعض الآثار الشعرية للشيخ ابن الصباغ الكشناوي وتلميذه الشيخ محمد بن مسني الكشناوي، والشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الملقب بالشاعر الأسود، والشيخ محمد الوالي بن سليمان، وغيرهم من علماء هذا البلد الذين عاشوا قبل قيام حركة ابن فودي بسنِين طِوال. ومما يُروى أن الشيخ أبا إسحاق الكانمي دخل على المنصور الموحدي فأنشده:[19]

أَزَالَ حِجَابَهُ عَنِّي وَعَيْنِي تَرَاهُ مِنَ المهابَةِ فِي الحِجابِ
وَقَرَّبَنِي تَفَضُّلُهُ وَلَكِنْ بَعُدْتُ مَهَابَةً عِنْدَ اقْتِرَابِي.

ولابن صباغ قصيدة في فضل العلم جاء فيها:

العِلْمُ رَوْضُ اللهِ كَالبُسْتَانِ أَشْجَارُهُ كَثِيرَةُ الأَفْنَانِ
أَثْمَارُهُ تَطِيبُ بِاللِّسَانِ مَنْ ذَاقَهُ يَرْقَى إِلَى الكَيوَانِ.

ومن قصائد الشيخ محمد الوالي المتداوَلة نونيَّته التي قالها في نحو أربعين بيتًا، جاء فيها:

أوصِيكُم يَا مَعْشَرَ الإِخْوَانِ عَلَيْكُم بِطَاعَةِ الدَّيَّانِ
وَإِنَّمَا غَنِيمَةُ الإِنْسَانِ شَبَابُه وَالحُسْرِ فِي التَّوَانِي.

أمَّا الشعر الذي خلَّفه أدباء هذا البلد في القرن التاسع عشر الميلادي فكثير جدًّا. وقد نال اهتمامًا كبيرًا وعناية فائقة، ذلك لما تميَّز به الوضع الثقافي من النضج الفكري في تلك الفترة التاريخيَّة، وهو ما يُعدُّ من الثمرات الطيِّبة من ثمرات حركة ابن فودي الإصلاحية التي قام بها في هذا البلد.

وبما أنَّ المقام لا يسع لذكر نماذج هذه النصوص يجدر الاكتفاء بالإشارة إليها؛ حيث أنَّ المؤرِّخين لهذا البلد والباحثين في موروث أبنائه الثقافي قد أَوردوا أعدادًا كبيرةً ومجموعاتٍ من النماذج الشعريَّة لا يُستهان بها في كتاباتهم ما يؤكِّد على تواتره بداهة العلم به. ومن ذلك ما أورده الأستاذ آدم عبد الله الإلوري في كتابه (المقطوعات الأدبيَّة في المحفوظات الشعرية)، وفي (مصباح الدراسات الأدبيَّة في الديار النيجيريَّة)، ومنه ما أورده الدكتور علي أبو بكر في (الثقافة

العربيَّة في نيجيريا)، والدكتورُ شيخو أحمد سعيد غَلادَنْثِي في (حركة اللغة العربيَّة وآدابها في نيجيريا)، والدكتورُ الشيخ عثمان كبر في (الشعر الصوفي في نيجيريا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين)، وفي غير هذه من عشرات الكتب ومئات الرسائل العلميَّة التي قُدِّمت في الجامعات النيجيريَّة وفي غيرها من الجامعات والمعاهد بالبلدان الأخرى؛ مثل السودان، ومصر، وليبيا، والحجاز، وبريطانيا.

ب – الأدب العربي النيجيري أيَّام الاستعمار: وينبغي القول بأنَّه منذ بداية القرن العشرين الميلادي حتَّى نهاية عقده السادس أُصِيبَ الأدبُ العربي في نيجيريا بفتور وانحطاط، وذلك لما ابتُلِيَ به حياة المسلمِين وثقافتهم العربيَّة في هذا البلد إثر وقوع الاستعمار البريطاني عليها؛ فانخفض فيها النشاط الفكري الإسلامي وقلَّ نتاجُه الفني العربي، قبل أن يَنهض مع زوال العقبات والحواجز الاستعماريَّة في العقود اللاحقة.

فالذي يدرس الأدب العربي النيجيري من بداية القرن العشرين الميلادي وحتَّى نهاية العَقد الأوَّل من منتصفه الثاني، يجد أنَّه لا يختلف كثيرًا عما سبقه في القرن التاسع عشر الميلادي. والسبب في ذلك هو أنَّ الأدباء الذين كانوا من ذوي الثقافة العربيَّة التقليديَّة استمرُّوا في إنتاجهم الأدبي، شعره ونثره، على طريقتهم التقليديَّة، وساروا على نفس الدرب الذي سار عليه أسلافهم من قبل؛ فلم يتأثَّروا بالثقافة الغربية التي أدخلها المستعمر في بلادهم، بل كانوا منعزلين عن الحركات السياسيَّة كل الانعزال، بعد أن كانوا قبل ذلك رجال دين ودولة، كما كانت اللغة العربيَّة في هذا البلد لغة دين ودولة أيضًا؛ ولكنَّها الآن أصبحت مدفوعةً للجوء إلى ميدان الأنشطة الدينيَّة وإلى الانزواء من ميدان الأنشطة السياسيَّة والثقافيَّة، حيث أحلَّ محلَّها المستعمِرُ لغتَه الإنجليزية.[20]

فلم يحدث أيّ تجديد أو تطوُّر ملموس في الأدب النيجيري؛ إذ اقتصر همُّه على المواضيع الدينيَّة، وعلى شرح وتخميس بعض القصائد التي قالها علماؤهم الذين عاشوا في القرن التاسع عشر الميلادي.[21]

وبمرور الأيَّام، قبل نهاية هذه الفترة، بدأت الثقافة الغربيَّة تنتشر في نيجيريا شيئًا فشيئًا، وأقبل بعض المسلمين الذين كانت لهم من الثقافة الإسلاميَّة العربيَّة يأخذون من الثقافة الغربيَّة أيضًا، وعندئذٍ، ظهَر نوعٌ آخر من الأدباء المثقَّفِين بالثقافة المزدوجة العربيَّة والإنجليزيَّة، وهذا ما وسَّعَ لهم مجالَ الانخراط في السلك الحكومي والاشتراك في ميادين الأنشطة السياسيَّة والثقافيَّة.

وكان من المتوقَّع من أدباء هذا النوع الجديد؛ لما يُميِّزهم عن غيرهم من الثقافة الغربيَّة الحديثة، بالإضافة إلى ثقافتهم العربيَّة الإسلاميَّة، أن يُقلِّدوا إخوانَهم العرب الذين اغترفوا من الثقافتَين فجدَّدوا في أدبهم العربي، ولكنَّ ذلك لم يصدر من هؤلاء فلم يتحقَّق منهم ذلك للأدب العربي النيجيري، بحيث أنَّهم استمرُّوا يسيرون سير من سبقهم على الدرب القديم. ومن الممكن أن يكون مردّ ذلك إلى أسباب كثيرة، منها:

1 – أنَّ الاستعمار عندما دخل هذا البلد لم يتح للغة العربيَّة فرصة الخوض لا في ميادينه الثقافيَّة العامَّة ولا في ساحات معاركه السياسيَّة.

2 – عدم وصول ريح النهضة الأدبيَّة الحديثة إلى هذا البلد في وقت مبكِّر، وهي تلك النهضة التي ظهرت في مصر وغيرها، نتيجة الاتصال والاحتكاك اللذين وقعا بين أهل الثقافتَين العربيَّة والغربيَّة، وكان السبب في عدم وصوله وجود حواجز خلقَها المستعمِر بعد دخوله، فحالت بين هذا البلد والبلاد العربيَّة والإسلاميَّة ردحًا من الزمن.

3 – وجود عراقيل كثيرة تقف أمام المشتغِل بالإنتاج في اللغة العربيَّة، من عدم توفر إمكانات كافِية أو مشجِّعة على نشر ما يُكتَب باللغة العربيَّة، في حين أن الإمكانات موفَّرة لنشر ما يُكتب بغيرها من اللغة الإنجليزيَّة وبعض اللغات المحليَّة، مثل لغة الهوسا.[22]

وهكذا مضت تلك الفترة والأدب العربي على منواله القديم، ولم يحدث فيه تغيير إلاَّ في بعض أغراضه وألوانه، بأنْ تلاشى منها موضوع الجهاد والحماسة والدعوة وغيرها من الأغراض والألوان التي تُعدُّ مظاهر لأوضاعٍ غابت عن الحياة في هذا البلد.

ج – الأدب العربي النيجيري أيَّام الاستقلال: أمَّا بالنسبة للأدب العربي في فترة ما بعد الاستعمار بهذا البلد، فإنَّ من الجدير بالذكر أنَّ التغييرات السياسية التي حدثت في خمسينيات القرن العشرين الميلادي كان لها تأثير بارز في حياة اللغة العربيَّة في هذا البلد؛ الأمر الذي مهَّدَ لوجود تطورات في الأدب العربي في الفترات اللاحقة للاستعمار. وذلك عندما بدأت نارُ الحمَلات الوطنيَّة ضدَّ الاستعمار البريطاني تلتهب وبدأت عواصف الاستعمار تهدأ وأخذ الوعي السياسي يتطوَّر في مختلف مناطقها، فبدأ النيجيريُّون يطالبون بحقوق التعليم العربي والإسلامي بأصواتهم العالية في المجالس البرلمانيَّة.

ثمَّ إنَّ التعديلات والتغيرات التي أُجرِيَت بعد الاستقلال عندما انفرد الشعب النيجيري بإدارة شئون بلده، جعلَتِ الحياة في هذا البلد جديدةً، فلبست اللغة العربيَّة ثوبًا جديدًا وأصبحت حركتُها بذلك نشطةً، وكثُر عدد أدبائها بأضعاف ما كان عليه في السابق، وحدث تجديد جعل الأدب العربي في هذه الفترة مُتميِّزًا عن ما كان عليه في الفترة السابقة، ومن أهمِّ أسباب هذا التجديد:

1 – إعادة فتح أبواب المواصلات التي أغلقها الاستعمار وتعزيز العلاقات التي تَبَطها بين نيجيريا والبلاد العربيَّة الإسلاميَّة، كمصر والسودان وليبيا والحجاز.

2 – عودة وفود البعثات العلميَّة من البلاد العربية، وخاصة التي وفدت إليها لمواصلة الدراسات الإسلامية والعربية في جامعاتها، حاملين معهم أفكارًا جديدة وثقافات واسعة، يُضاف إلى ذلك انضمامُ كثير منهم إلى هيئة التدريس في المدارس العربيَّة الحديثة.

3 – وجود كتب أدبيَّة حديثة في مكتبات نيجيريا، الخاصة منها والعامة، من بين الكتب العربيَّة المطبوعة التي تدفَّقت إلى نيجيريا من العالم العربي.[23]

ثالثاً – فنون الأدب العربي النيجيري ومضامينه:

يتكوَّن الأدب العربي النيجيري أساساً من النثر والشعر بأنواعهما المختلفة، التي تتضمَّن تعبيرات وانفعالات ومواقف تجاه القضايا السياسيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة والعقائديَّة والاقتصديَّة على الصعيد الدولي والإقليمي.

وتشمل أنواع النثر الفنِّي في الأدب العربي النيجيري على الخُطب والرسائل والقصص والروايات والتمثيليَّات والحكم والأمثال.

أما أنواع الشعر العربي التي تناولها أدباء هذا البلد في قصائدهم تدخل جميعها تحت جنسين من أجناس الشعر العربي، وهما الشعر الوجداني والشعر التعليمي؛ وكانت أغراضهم قلَّما تتجاوز الموضوعات التقليديةَ المعروفة، وهي المتمثِّلة في المديح، والرثاء، والهجاء، والوصف، والحكم والأمثال، والتوسل، وشعر الجهاد، والوعظ والإرشاد.

ويمكن القول بأنَّ محاكات هؤلاء الأدباء لتلك النصوص الشعريَّة التي وصلتهم لم تقتصر على تقليد فنونها وقوافيها وأوزانها العروضيَّة فحسب، بل كانت تشمل ألفاظها وتعابيرها ومظاهر محسناتها البلاغيَّة، كما كانت تتطرَّق إلى أساليبها ومناهجها أيضًا، من حيث البدء بالنسيب والوقوف على الأطلال، ووصف السَّير الطويل، وذِكر الصعوبات التي كابدها الشاعر في الطريق، وغير ذلك من الأمور التي أكَّد عليها النقاد القدامى.[24]

ولكن مع ذلك كلِّه فقد كانت جميع الفنون التي طرقوا أبوابها، وخاصة الشعريَّة منها، بعيدةً كلّ البعد عمَّا يتنافى مع القِيَم والمبادئ الإسلاميَّة وكمالهم الخُلقي ومنزلتهم الدينيَّة.[25] ولا يبعد أن يكون هذا من مظاهر تأثُّرهم بمواقف القرآن الكريم، حيث أنَّه لم يستحسن من الشعر إلاَّ ما كان تأييدًا للإسلام ولا يتنافى مع قِيَم الإيمان ومبادئ الإصلاح، وذلك بقول الله ﷻ: **{وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}.**[26]

التجديد في الأدب العربي النيجيري:

يمكن ملاحظة التجديد في الأدب العربي النيجيري من عدَّة نواح، أهمّها:

1 – من ناحية الأغراض: حاول بعض الأدباء في فترة ما بعد الاستقلال النيجيري وصفَ الحياة الطبيعيَّة وما وصلتْ إليه الحياة الجديدة في العصر الحاضر، من التمدُّن والحضارة، وما تَولَّدَ من ذلك من المشكلات والمعارك؛ فظهرت أغراض جديدة في الشعر لم تُطرَق من قبل في تاريخ هذا البلد.

2 – من ناحية الأسلوب والألفاظ: بدأ بعض الأدباء في هذه الفترة يستخدمون لغةً سهلة وأساليب سلسةً ويبتعدون عن الأساليب الصعبة ويتحاشون الألفاظ الغريبة في إنتاجاتهم الأدبيَّة.

3 – من ناحية المنهج: راح بعض من الشعراء في هذه الفترة يبتعدون عن الوقوف على الأطلال، ووصفِ الراحلة والمشقات التي كابدها الشاعر في مطلع قصيدته، وغيرها من المناهج التقليديَّة القديمة التي سار عليها الشعراء في الفترات السابقة للاستقلال.[27]

رابعاً – مصادر الأدب العربي النيجيري واتجاهاته:

إنَّ مدلول المصدر في هذا الصدد عبارة عن المفهوم العام لمصادر أدب هذا البلد، ويمكن النظر فيه من ناحيتَين؛ أُولاها الأدباء الذين صدر منهم الأدب. وثانيتها الكتب والدواوين التي احتوت هذا الأدب والتي يمكن الرجوع إليها للوقوف على نصوصه.

وبما أنَّ اللغة العربيَّة في نيجيريا لم تكن إلاَّ لغةً ثانيةً، بمعنى أنَّها لغة الدِّين والثقافة الإسلاميَّة والعربيَّة، كان يتعلَّمها المسلمون كوسيلة لفهم الدين والتفقُّه فيه،[28] هذا، بالإضافة إلى ما تَستلزِمه عمليَّة الإنتاج الأدبي من البراعة اللغويَّة، فكان جميع أدباء العربيَّة في هذا البلد من طبقة العلماء؛[29] إذ أنهم هم الذين يمتلكون قدرًا من الكفاءة اللغويَّة التي تؤهِّلهم للقيام بمثل هذه العمليَّة الشاقة، وخاصة إذا كانت في الشعر، الذي يصعُب حتَّى على العرب أنفسهم، على حسب قول الحطيئة:

الشِعرُ صَعبٌ وَطَويلٌ سُلَّمُه إِذا اِرتَقى فيهِ الَّذي لا يَعلَمُه
زَلَّت بِهِ إِلى الحَضيضِ قَدَمُه يُريدُ أَن يُعرِبَهُ فَيُعجِمُـه.[30]

فمن هنا يجزم القول بأنَّ الأدباء في هذا البلد من صنف العلماء الذين تبحَّروا في العلوم الإسلاميَّة والفنون العربيَّة، وأنَّ النتاج الفكري الصادر منهم، على ما تُفرِض عليه طبيعتُه، قد اصطبغ بالصبغة الإسلاميَّة، و"أنَّ الطابع الغالب على أدبهم إنما هو طابع التقليد والإتباع، شكلاً ومضمونًا، بل التقليد الذي يخلو، في أجود نماذجه، من أي مظهر من مظاهر التجديد والإبداع، إذ أن مجموع هذا الأدب تولَّد من منطق الإعجاب المطلق بالنموذج العربي في البناء، وبدا مقلِّدًا لبعض أمثلته".[31]

وأمَّا مصادر هذا الأدب بمفهوم الكتب أو الدَّواوِين التي تحتوي على أدب هذا البلد فهي في الدرجة الأولى، عبارة عن مخطوطات محفوظة في مكتبات خاصة لأصحابها أو لورثتهم أو لبعض الخواص من تلاميذهم الموثوق بهم. وفي الدرجة الثانية تُوجد نسخٌ منقولةٌ أو مصوَّرةٌ منها في بعض المكتبات التابعة للمعاهد والجامعات والمراكز الثقافية والتاريخية المحليَّة، مثل: جامعة إِبادانْ، وجامعة أحمد بِلُّو زاريا، وجامعة عثمان طَنْ فوديو صَكَّتُو، وجامعة بَايَرُو كَنُو، وجامعة مَيْدُوغْرِي، ومركز التوثيقات والبحوث التاريخية التابع لجامعة أحمد بِلُّو في كَدُونَا، ومكتبة الوزير جنيد للتاريخ والثقافة الإسلاميَّة بمدينة صَكَّتُو، وفي غيرها من المكتبات التابعة لبعض الجامعات والمراكز الثقافيَّة والتاريخية الخارجية، كمصر، والسودان، وليبيا، والكويت، وبريطانيا.

وفي حين أنَّ كثيرًا من نصوص هذا الأدب القديمة لا يزال مخطوطًا فقد تمَّ تحقيق بعضه ونشره مستقلاً، وتمَّت دراسة بعضه في ثنايا البحوث التي قام بها الطلاب في المعاهد والجامعات على اختلاف مستوياتهم الدراسيَّة. فإنَّ قوائم تسجيل البحوث بأقسام اللغة العربيَّة والدراسات الإسلاميَّة في تلك المؤسَّسات مطوَّلَة بعناوين مثل هذه البحوث، فضلاً عن مئات المقالات والأوراق البحثيَّة المنشورة في المجلات وغيرها.

والجدير بالذكر فيما يتعلَّق باتجاهات هذا الأدب هو أنَّها إسلاميَّة؛ إذ الاتجاهات في الأعمال الأدبيَّة غالباً ما تكون وليدة رؤية الأديب الكونيَّة، تلك الرؤية التي تخضع دائماً لحكم الرؤية الإيديولوجيَّة في جميع الآونة والأمكنة. فالأديب العربي النيجيري بما أنَّ رؤيتَه الإيديولوجيَّة إسلاميَّةٌ كذلك تكون رؤيته الكونيَّة، بطبيعة الحال، إسلاميَّةً؛ فيظهر أثر ذلك في تناوله القضايا الخاصة والعامة، سواء كانت سياسيَّةً أو اجتماعية أو ثقافية أو اقتصادية أو عقائديَّة.

الخاتمة:

يمكن أن يُستَخلَص من جميع ما تقدَّم أن مفهوم الأدب العربي لدى النيجيري هو المفهوم العام للأدب، حيث يشترك فيه ما يَنطبِق عليه اسم النثر والشعر بنوعيهما العلمي والفني. كما يتَّضح من ذلك كلِّه أن الأدب العربي النيجيري عاش مقلِّداً للأدب العربي الأصيل في نشأته وتطوُّراته، كما أنَّه إسلاميُّ النشأة في تاريخه ولغته وموضوعاته وقضاياه وأفكاره، وأنَّه كان في بداياته يصوِّر حياة خاصة، قبل أن تصبح موضوعاته الأكثر واقعيَّةً فتشمل في تصويرها القضايا العامة، الإقليميَّة والدوليَّة، السياسيَّة منها والاجتماعيَّة والثقافيَّة بكلِّ أنواعها وبمختلف أبعادها.

الهوامش:

1. الموسوعة العربية العالمية، النسخة الإلكترونية، إصدار: 2003م، مادة: الأدب.

2. على ضوء التعريف الذي ورد لمادة الأدب في المعجم الوسيط.

3. مصطفى خليل الكسواني وغيره، المدخل إلى تحليل النص الأدبي وعلم العروض، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط: 1، 2010م، صـ: 15.

4. يُنظَر: شِيخُو أحمد سعيد غلادنثي، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا من سنة 1804م إلى سنة 1966م، رياض، ط: 1993،2م، المكتبة الأفريقية، صـ: 101 – 102.

5. ينظر: المرجع السابق.

6. يُنظَر: عبد الصمد عبد الله محمد، أضواء على الشعر العربي في غرب أفريقيا (السنغال ونيجيريا)، القاهرة، مكتبة وهبة، ط: 1، 2001م، صـ: 33 – 36.

7. ينظر: المرجع السابق.

8. حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، لبنان، المطبعة البوليسية، ط: 11، 1983م، صـ: 865.

9. عبد العالي الحمامصي، البوصيري مادح الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، بيروت – لبنان، مكتبة الهداية، ط: 2، 1993م، صـ: 20. ويُنظَر أيضًا: شفيق الرقب، في تاريخ الأدب العربي القديم، عمان، دار صفا، 1990م، صـ: 130.

10. ينظر: غازي طليمات، الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، بيروت، دار الفكر المعاصر، 2001م، صـ:19.

11. ابن خلدون، المقدمة، بيروت – لبنان، دار الكتاب العربي، ط: 2، 1998م، صـ: 507.

12. أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1915م، جـ: 5، صـ: 27.

13. تمَّ استقلال نيجيريا من الاستعمار البريطاني في اليوم الأول من أكتوبر عام 1960م.

14. يُنظَر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، بيروت، دار الثقافة، 1960م، صـ: 34 وما بعدها.

15. يُنظَر: آدم عبد الله الإلوري، موجز تاريخ نيجيريا، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1965م، صـ: 80، وعبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، باريس، 1898م، صـ: 218.

16. يُنظَر: آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، ط: 2، 1971م، صـ: 56.

17. يُنظَر: آدم عبد الله الإلوري، موجز تاريخ نيجيريا، المرجع السابق، صـ: 34.

18. يُنظَر: آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا، المرجع السابق، صـ: 60 – 62، و آدم عبد الله الإلوري، موجز تاريخ نيجيريا، المرجع السابق، صـ: 79 – 80.

19. ينظر: آدم عبد الله الإلوري، (موجز تاريخ نيجيريا) المرجع السابق.

20. يُنظَر: شِيخُو أحمد سعيد غلادنثي، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، المرجع السابق، صـ: 143.

21. يُنظَر: علي أبو بكر، الثقافة العربية في نيجيريا من 1750م إلى 1960م، ط: 1، 1972م، صـ: 350.

22. ينظر: المرجع السابق، صـ: 144 - 145.

23. يُنظَر: المرجع السابق، صـ: 147.

24. أمثال ابن قتيبة الدينوري كما في كتابه: الشعر والشعراء، بيروت، دار الكتب العلمية، ط: 1، 2000م، صـ: 27.

25. ينظر: علي أبو بكر، الثقافة العربيَّة في نيجيريا، المرجع السابق، صـ: 147.

26. سورة الشعراء الآيات: 224 – 227.

27. يُنظَر: شِيخُو أحمد سعيد غلادنثي، حركة اللغة العربيَّة وآدابها في نيجيريا، المرجع السابق، صـ: 148، وعلي أبو بكر، الثقافة العربيَّة في نيجيريا، المرجع السابق، صـ: 350.

28. يُنظَر: شِيخُو أحمد سعيد غلادنثي، حركة اللغة العربيَّة وآدابها في نيجيريا، المرجع نفسه، صـ: 102 – 104.

29. يُنظَر: علي أبو بكر، الثقافة العربيَّة في نيجيريا، المرجع السابق، صـ: 327.

30. أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، بيروت، دار الفكر، ط: 2، جـ: 2، صـ: 189.

31. يُنظَر: محمد مسعود جبران، "الاتجاه الإسلامي في الشعر النيجيري الحديث"، مقال قدمه في ندوة بعنوان: "من أجل أدب إسلامي فاعل ومتفاعل"، منظمة إيسيسكو وجمعية الدعوة الإسلامية، الجامعة الإسلامية بالنيجر، 2002م، صـ: 16.